مجلة مقاربات فلسفية | ISSN : 2352- 9776 EISSN : 660X-2600 | المجلد 08 / العدد: 01(2021)، ص 305- 317

نظرية المعرفة عند أرسطو

Aristotle's theory of knowledge

حاج بت دحمان*

جامعة أحمد زبانة بغليزان (الجزائر)، **bendahmane.hadj@gmail.com**

تاريخ الاستلام: 2021/04/29 تاريخ القبول: 2021/05/21 تاريخ النشر: 2021 /06/05

ملخص:

يحتل الفيلسوف اليوناني أرسطو مكانة أساسية في تاريخ الفكر الفلسفي، وما لقب المعلم الأول الذي أطلق عليه إلا دليل على ذلك، وهذا نظرا لموسوعيته. إن خاصية الموسوعية جعلت أرسطو يهتم بجميع مناحي الفكر الإنسانية الاجتماعية والسياسية والطبيعية والأدبية. ومن الموضوعات الأساسية في الفلسفة الأرسطية، نجد نظرية المعرفة، إذ حاول أن يوفق بين الأطروحات المتضاربة التي طرحها الفكر الفلسفي قبله حول ماهية المعرفة ومصدرها وإمكانيتها وحدودها. إذ أصبحت المعالجة الأرسطية لنظرية المعرفة تختلف عن سابقتها، إذ تساءل عن ما أهمية المعرفة عموماً والمعرفة الحسية على وجه الخصوص؟ -ما معنى الإحساس؟ -كيف يحدث الإحساس وما عمل الحواس الخمس؟ -ما دور الحس المشترك؟ - وما معنى العقل وكيف يحدث الإدراك العقلي؟ - ما الفرق بين العقل العملي والعقل النظري؟ -وما درجات المعرفة العقلية؟

كلمات مفتاحية: الحس المشترك، المعرفة، الحواس، العقل النظري، العقل العملي.

Abstract:

The Greek philosopher Aristotle occupies a fundamental place in the history of philosophical thought, and the title of the first teacher who was called him is evidence of that, and this is due to his encyclopedia. The characteristic of encyclopedia made Aristotle interested in all aspects of human thought, social, political, natural, and literary. One of the main topics in Aristotelian philosophy is the theory of knowledge, as he tried to reconcile the conflicting theses put forward by philosophical thought before him about what knowledge is, its source, potential and limits. As the Aristotelian treatment of epistemology became different from its predecessor, as he asked what was the importance of knowledge in general and sensory knowledge in particular? What is the meaning of feeling? How does the sensation occur and what do the five senses do? What is the role of common sense? What is the meaning of the mind and how does mental perception occur? What is the difference between a practical mind and a theoretical mind? What are the degrees of mental knowledge?

Keywords: Common sense, knowledge, the senses, the theoretical mind, the practical mind

*المؤلف المرسل

1. مقدمة: إن من جسد بحق مقولة "إنزال الفلسفة من السماء إلى الأرض" في تاريخ الفلسفة هو الفيلسوف اليوناني أرسطوطاليس* الملقب بالمعلم الأول، إذ أننا نجده يعالج قضايا فلسفية وعلمية لم يشهدها الفكر البشري من قبله. وما اختلافه الفكري مع أستاذه أفلاطون ونقده "لنظرية المثل" إلا خير دليل على هذا التوجه الواقعي لفلسفته. ومن بين الموضوعات العديدة التي تطرق إليها أرسطو، نجد نظرية المعرفةThéorie de la connaissance وهي "البحث في طبيعة المعرفة وحدودها وقيمتها وأصلها ووسائلها، وفي المشكلات الفلسفية التي تنشأ عن العلاقة بين الذات المدركة أو العارفة والموضوع المدرك أو المعروف"[1]، كما يتميز هذا الفرع المعرفي عن "السيكولوجية المحضة والتي تقتصر على التفرقة بين العمليات الذهنية ووصفها دون الفحص عن صحتها أو زيفها، وتتميز أيضا عن المنطق الذي يقتصر على أن يصوغ قواعد تطبيق المبادئ، دون أن يبحث عن أصلها، ودون أن يناقش قيمتها، وقد ذاع هذا المصطلح في القرن التاسع عشر"[2]. وأقدم صور هذه النظرية بحث الفلاسفة عن درة التشابه بين التصور الذهني والشيء الخارجي لمعرفة حقيقة المطابقة بينهما. وأحدث صورها تلك التي تبحث في طبيعة الذات المدركة لمعرفة الأثر الذي تتركه هذه الذات في تصور الشيء الخارجي، "ولكن هذه الصور الحديثة ترجع كالصورة القديمة إلى البحث في قيمة العلم، أي في قيمة التصور والتصديق، لذلك قال "ري": "إن نظرية المعرفة هي البحث في قيمة"[3].

وإذا أردنا وضع ظهور مبحث "نظرية المعرفة" في سياقه التاريخي، فإننا نجد السبب الأول لظهوره هو بروز موجات الارتياب والشك على يد السوفسطائيين ومن أتى بعدهم. لقد اتجهت عناية فلاسفة اليونان الأوائل، أو ما يعرف في تاريخ الفلسفة "بعصر ما قبل سقراط" إلى البحث في الوجود الخارجي، بهدف الكشف عن الحقيقة فيه، ولم تتجه عنايتهم إلى البحث في صدق وسائل المعرفة وحدود إمكانياتها، "فقد وضعوا ثقتهم في قدرة العقل الإنساني على المعرفة، وأقاموا نظامهم الفلسفي دون أن يفكروا في مشكلة المعرفة"[4]، إلى أن جاء السوفسطائيين وحولوا وجهة البحث الفلسفي إلى النظر إلى مباحث المعرفة وحدودها، فأثاروا بذلك مشاكل هامة وأعملوا الهدم حتى في أبسط مسلمات العقل، حتى استحال قيام العلم، فقد قالوا بنسبية المعرفة، وأن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً، فامتنع لديهم كل قول أو معرفة، وقد استند السوفسطائيون إلى خداع الحواس وعدم الثقة في الإدراك الحسي، وتلاعبوا بالألفاظ مستخدمين طرق التورية والجناس اللفظي حتى أشاعوا الغموض والاضطراب في أفكار الناس وأقوالهم، الأمر الذي دفع كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو للرد عليهم كل بطريقته الخاصة لتثبيت دعائم المعرفة وتمحيص أدواتها. فسقراط دافع عن موضوعية العلم بطريقته الجدلية التي كانت تستهدف وضع التعريفات لكي يقوم العلم وتصح المعرفة، وقد كان جوهر فلسفته عبارته المشهورة "أعرف نفسك بنفسك"، فهو الذي حول النظر إلى المعرفة، بل جعلها فضيلة

والجهل رذيلة. وقد قال بالعقل مصدراً للمعرفة، من خلال معاييره الثابتة، والتي تشترك فيها العقول جميعاً، ورد شك السوفسطائيين إلى اعتمادهم على الحس الذي يختلف باختلاف الأشخاص، وهذا خلاف العلم الذي هو معرفة الكليات الثابتة في الأشياء، وهذه مصدرها العقل"[5]. وقد واصل تلميذه أفلاطون منهج أستاذه سقراط معتبراً التعقل معيار الحقيقة الصادق الأمين، خلافاً للمعرفة الحسية الخادعة، وقد ميز أفلاطون بين نوعين من المعرفة هما أولاً: معرفة يقينية تنصب على المعقولات العليا وهي المثل، والمعقولات السفلى، وهي المتوسطات الرياضية. وثانياً: معرفة ظنية وهي تنصب على المحسوسات الطبيعية. والعليا عنده هي المعرفة اليقينية الحقة، وتختلف عن الظن والإحساس، في أن العلم إنما يؤسس على العق ومبدأ العلية، أما الإحساس فهو نسبي. والمعرفة عند أفلاطون تبدأ بالإحساس ولكنها لا تلبث أن تتجاوزه إلى المثل، وفي نطاق إدراك المثل نجد معيار الصدق يتمثل في المطابقة بين محتوى إدراكنا العقلي والحقيقة التي هي المثل، ذلك أن كل معرفة فإنما هي تذكر لما سبق أن عاينته النفس في العالم المعقول، وما المحسوس إلا مناسبة لاستحضار المعقول. والتعقل عند أفلاطون هو أسمى درجات المعرفة وأرقاها جميعاً، "فموضوعه التصورات الفلسفية المجردة أو المثل العقلية، كالعدالة والجمال والخير، فهو يطلب العلم الكامل والمعاني الكاملة والماهيات الثابتة والصور المفارقة، والحقيقة العليا، حقيقة الحقائق، دون الاستعانة بالحواس والرجوع إليها"[6].

وفي هذا الإطار جاء هذا المقال لمعالجة مبحث نظرية المعرفة في فلسفة الفيلسوف اليوناني أرسطو الذي أكمل ما بدأه كل من سقراط وأفلاطون في هذا المجال لنجيب عن الأسئلة التالية: - ما أهمية المعرفة عموماً والمعرفة الحسية على وجه الخصوص؟ - ما معنى الإحساس؟ -كيف يحدث الإحساس وما عمل الحواس الخمس؟ - ما دور الحس المشترك؟ - وما معنى العقل وكيف يحدث الإدراك العقلي؟ - ما الفرق بين العقل العملي والعقل النظري؟ -وما درجات المعرفة العقلية؟

2. نظرية المعرفة عند أرسطو

1.2 موقف أرسطو من نظرية المثل الأفلاطونية*

قال أفلاطون بوجود عالمين هما العالم المحسوس ومعرفته ظنية، والعالم المعقول وهو عالم المثل ومعرفته يقينية. ورأى أن الفيلسوف الحق هو الذي يميز بين الأشياء المشاركة ومثلها، ويجاوز المحسوس المتغير إلى نموذجه الدائم، ويؤثر الحكمة على الظن، فيتعلق بالخير بالذات والجمال بالذات، والذي ينتقل من العالم المحسوس إلى عالم المثل "تصبح رؤيته أدق لأنه أقرب إلى الحقيقة، ومتجه صوب أشياء أكثر حقيقة"[7].

والقضية الأساسية في نظرية المثل هي التمييز بين عالم الحقيقة أو ما يسمى بعالم المثل، وعالم الظاهر أو ما يسمى بعالم المحسوسات. العالم الأول يتسم بالثبات والسكون وهنا نلمس مدى تأثر أفلاطون

ببارمنيدس الإيلي، والعالم الثاني يتسم بالتغير والصيرورة، وهذا رأي هرقليطس الذي أكد أن العالم في تغير مستمر ولا يوجد شيء باق على الإطلاق.

وفي محاولة التوفيق هذه بين مذهب هيرقليطس وبارمنيدس، نجد أن أفلاطون قد قبل بمبدأ هيرقليطس وجعله مبدأ العالم المحسوس، أما مبدأ بارمنيدس فقد جعله مبدأ للعالم المعقول، ولكنه وجد صعوبات كثيرة بصدد تفسير العالم المعقول على ضوء مذهب بارمنيدس، "ومن هذه الصعوبات أن أفلاطون قد انتهى إلى إقرار فكرة التداخل بين المثل لكي يوجد نوعاً من الاتصال والحركة والكثرة التي توقم فيها الكثرة وضع مبدأ اللامعين أو اللامحدود"[8].

يؤكد أفلاطون أننا نتوصل إلى معرفة المثل ونستكشفها في النفس بالتفكير، فإذا أمكننا استخراج معارف لم يلقنها لنا أحد فلا بد وأن تكون النفس قد اكتسبتها في حياة سابقة على الحياة الراهنة.

أما أرسطو فقد رأى أن القول بالتغير المستمر نفيا للصورة الثابتة، وهو ما يعد نفياً لموضوع العلم، إذ أن هذه الصورة هي الموضوع الحقيقي للعلم، فإذا كانت متغيرة دائماً تعذر أن تكون موضوعاً لأي إدراك، وقد أشار أرسطو إلى أن موقف هرقليطس قد دفع أفلاطون إلى التسليم بوجود عالم آخر معقول يصون به العلم ويجد فيه موضوعاً لدراسته، ولكن أرسطو يقول عن نفسه أنه سيحاول أن يجد صورة العلم في عالمنا هذا لأن فلسفة أرسطو تفترض أن هذا العالم هو عالم الوجود الحقيقي ومن الممكن عن طريق الاستقراء أن تجد في هذا العالم مجموعة من الحركات يحدد بعضها حالات بدء ويحدد بعضها الآخر حالات نهاية للحركة، ومن ثم ليس هناك أي أساس لقول بالتغير المستمر للصورة الجوهرية، "إذ أن المشاهد في الواقع أن الصورة تبقى كما هي، وأننا نستطيع التعرف على زيد أو عمرو من الناس أو على حيوان ما أو على نبات ما في أوقات مختلفة وإلا لما أمكن التفاهم بين الناس". وعلى الرغم من أن أرسطو لم يقبل نظرية المثل فقد رأى أن المعرفة تكون دائماً معرفة الأشياء الثابتة، وهي صور الأشياء المحسوسة، وهذا تطوير لموقف أفلاطون، لم يقل أرسطو أن الحواس خادعة أو أن العالم المحسوس موضوع للظن-كما سنرى فيما بعد-لكنه رأى أن العالم المحسوس موضوع معرفة بمعنى أن موضوع المعرفة هو الصورة المنبثة في المادة.

ويشرح ذلك بقوله إن المعرفة تتألف من إدراك العلاقات الأساسية بين الصور، فلكي نعرف شيئاً يجب إدراجه تحت نوع وجنس، ومن ثم تعرف ماهيته وهي صورته وعلته، ولكي نعرف علته يجب البرهان على الماهية من مبادئ أولى ونعرف هذه المبادئ بنوع من الحدس ونرى صدقها في الأمثلة الحسية ومن العبث أن تطلب البرهان على كل شيء، فالمبادئ الأولى –كقوانين الفكر الثلاث الأساسية- لا تقبل البرهان.

ولقد توسع أرسطو في مبحث "ما بعد الطبيعة" أو الميتافيزيقا في تحليل نظرية أفلاطون في "المثل" وبيان ما فيها من أخطاء والرد عليها، وقد رد على هذه النظرية بجملة ردود، أهمها:

أ-أن نظرية المثل الأفلاطونية لا توضح لنا مشكلة كيف نشأ هذا العالم، مع أن هذه أهم مسألة في نظر الفلسفة، فإذا سلمنا بأن هناك مثالاً للبياض مثلاً، فكيف نشأ عنه الأشياء البيضاء؟

ب-هب أن هذه الأشياء وضحت بنظرية المثل، فأفلاطون يرى أن المثل ثابتة على حال لا تتغير، وأنها ساكنة غير متحركة. وإذا كان كذلك فيجب أن تكون صورها، وهي الأشياء، كمثالها ثابتة ساكنة، ولكننا نرى العالم متغيراً متحركاً، فالأشياء ترتقي وتنحط ولا تستقر على حال، فلِم تتغير هذه الصورة مع أن أصلها، وهو المثال، ليست متغيرة؟ وخطأ أفلاطون "أنه توهم هذه الماهيات الثابتة مفارقة للمحسوسات، وأفلاطون بفصله المثل، لم يشأ، على ما يرى أرسطو، سوى أن يتخيل جوهراً يمكن أن يكون موضوع العلم الذي ابتدعه سقراط"[9].

ج-يرى أفلاطون أن المثل لا تدرك بالحس، والحق أنها تدرك بالحس، فهو في الحقيقة يأخذ الأشياء التي تدرك بالحس ويعممها ويسميها ثانية لا تحس، فلا فرق في الحقيقة بين الحصان ومثال الحصان والإنسان ومثال الإنسان إلا التخصيص والتعميم، وليست المثل إلا الأشياء المحسوسة مجرّدة، وقد شبه أرسطو ذلك بالآلهة المجسمة في بعض المذاهب الدينية، فكما أن الآلهة عندهم ليست إلا أناسيّ مؤلهة، فكذلك المثل ليست إلا الأشياء الطبيعية أزلية مؤبدة، وإذا كان أفلاطون يؤكد على أن الأشياء صورة من المثل، فإن العكس هو الصحيح عند أرسطو، أي المثل هي صورة من الأشياء.

د-وقد فند أرسطو نظرية المثل بما سماه "الإنسان الثالث"، ذلك أن المثال يشرح القدر المشترك بين الأشياء، "فكلما كان هناك قدر مشترك كان هناك مثال، فهناك قدر مشترك بين الناس كلهم، لذلك كان لهم مثال هو مثال الإنسان، ولكن هناك قدر مشترك بين الفرد من الناس وبين مثال الإنسان، فيجب أن يكون لذلك مثال يشرحه، وهذا ما سماه "الإنسان الثالث"، وهناك كذلك قدر مشترك بين هذا الإنسان الثالث والفرد من الناس، فيجب أن يكون له كذلك مثال، وهكذا إلى ما لا نهاية"[10]، وفي هذا التسلسل، وهو محال.

ه-وأخيراً وهو أهم اعتراضات أرسطو أن المثل على رأي أفلاطون ماهية الأشياء، وماهية الأشياء يجب أن تكون فيها لا خارجة عنها، ولكن أفلاطون فصل المثل عن الأشياء وجعلها عالماً مستقلاً، وجعل لكل مثال وجوداً مستقلاً.

إن أرسطو برفضه لنظرية المثل، فإنه ذلك يتشبث بدنيا الواقع والحس، وينظر إلى الطبيعة نظرة علمية مدققة يسير فيها بمنطق تدريجي متسلسل لا قفزة فيه ولا طفرة. إن أرسطو جاء ليحدّ من غلواء النزعة المثالية عند أفلاطون ويضع أصول المنهج المادي الذي لا نزال نستلهمه في البحث وغزو الطبيعة.

2.2 تعريفه للعلم: قدم أرسطو مصطلحاً دقيقاً ومحكماً للدلالة على العلم هو Episteme وهو يدل أيضاً على المعرفة، واستطاع تقديم تصور واضح للتمييز بين ما هو علم وبين الصور الأخرى للنشاط

العقلي*، فالعلم لا يعرف فقط أن شيء هو كذا كما يكشف عن ذلك الخبرة، بل يعرف لماذا هو كذلك، أي يمتلك العلم بالتفسير العقلي وذلك بمعرفة العلل الأولى والمبادئ الأولى.

وقد استهل أرسطو كتاب "ما بعد الطبيعة" بالتمييز بين الإحساس والتجربة والفن والعلم والفلسفة، فبدأ بقوله إن الرغبة في المعرفة موجودة عند جميع الناس بالفطرة، وآية ذلك اللذة الحاصلة من الحواس فهي بصرف النظر عن نفعها تجلب لذتها اللذة، والبصر أعظمها لأنه سبيل معظم المعارف الإنسانية. "والفرق بين الإنسان والحيوان، أن الحيوان يقف عند حد التخيل والتذكر ولا يكاد يوجد عنده التجربة، أما الإنسان فيرتفع إلى مرتبة الفن والاستدلال وتقوم التجربة في الإنسان على أساس الذاكرة، وينشأ عن التجربة الفن والعلم"[11].

والفن الذي يقصده أرسطو هو التطبيق العلمي القائم على المعرفة النظرية، أو على مجرد التجربة والخبرة، وهذا هو المقصود من اللفظة اليونانية، وهي التي استخدمت في الاصطلاح الحديث بمعنى التكنولوجيا، أي المهارة في الصناعة. ويضرب مثلاً للتمييز بين التجربة والفن فيقول: "إن الحكم بأن هذا الدواء يشفي كالياس وسقراط وغيرهما فرداً فرداً ثمرة التجربة، فإذا أضفنا إلى ذلك العلم بعلة الداء وأنه المرارة أو الحمى فهذا هو الفن. وللعلم عند أرسطو طريق آخر خلاف التجربة هو الإحساس الذي يعد أساس المعرفة بالجزئي، ولكن الإحساس لا يفيد علة الشيء.

وقد كان الإحساس ثم التجربة سبيل الإنسان أول الأمر إلى الكشف، يقودهم في ذلك تحقيق المنفعة أو اللذة. ومن هنا نشأت الفنون لتحقيق هذين الفرضين. أما العلم فإنه لا يحقق منفعة ولا يشبع لذة، ولكنه نشأ في البلاد التي يسود فيها الفراغ، فكانت مصر بذلك مهد العلم الرياضي إذ كان الكهنة في فراغ ييسر لهم البحث العلمي. أما الفلسفة فهي أعلى العلوم وأسماها لأنها تبحث عن العلل الأولى ومبادئ الموجودات.

لقد ميز أرسطو، وذلك في إطار تحديده الدقيق لمعنى العلم، بين العلم واللاعلم أو بين العلم وبين الظن Doxa وبين الفن Techne. وإذا كان أفلاطون قد ميز بين العلم والظن على أساس التمييز بين علم المعقول وعالم المحسوس، فإن التمييز الأرسطي بينهما كان مختلفاً، لأنه جاء منطقياً ومعرفياً في المقام الأول، حيث يقول أرسطو مؤكداً ذلك: "إن العلم والعلوم المختلفة مخالف للظن والمظنون، بأن العلم يكون على طريق الكلي وبأشياء ضرورية، والضروري لا يمكن أن يكون على خلاف ما هو عليه. وقد توجد أشياء هي صادقة وموجودة غير أنها قد يمكن أن تكون على خلاف ما هي عليه. فمن البيّن إذن أن في هذه لا يكون علم"[12]. وهكذا فالعلم هو فقط ما به يتم إدراك الماهية الكلية لأي شيء لأنها هي الثابت الذي لا يتغير من الشيء. أما ما عدا ذلك فهو ليس موضوعاً لليقين ومن ثم فهو ليس علماً.

ويميز أرسطو أيضاً بين العلم والفنTechne والذي يعني في الاصطلاح اليوناني القديم المهارة في الصنعة أو إتقان صنعة معينة ومن ثم فموضوعه الأشياء التي تمكن أن تكون خلافاً لما هو عليه، ومن ثم فالإنتاج الفني أو الفن عموماً يختلف عن العلم حيث أن العلم هو "إدراك للأشياء الكلية والأشياء

واجبة الوجود"[13]، حسب تعبير أرسطو، بينما الفن يرتبط بإنتاج أشياء يمكن أن تكون خلافاً لما هي عليه، فضلاً عن أنها ممكن أن توجد ويمكن ألا توجد.
إن العلم إنما يدين لأرسطو ولا لأفلاطون، فمنهج أرسطو في البحث واستخلاص الحقائق وتحصيلها منهج ثرّ خصب وخالد، قادر على الخلق والإنتاج والعطاء إذا أحسن استغلاله، إلا أورث جدلاً عقيماً.

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني ، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني ، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني.

3. **تصنيفه للعلوم**: لم يكن الفضل لأرسطو في محاولة تحديد دقيق لمعنى العلم والتمييز بينه وبين اللاعلم، بل كان له الفضل أيضاً في أنه حاول ولول مرة التمييز بين مجالات العلوم المختلفة وتحديد موضوعاتها ومنهجية البحث فيها. ولهذايُعزى إلى أرسطو تقسيم العلوم إلى نظرية وعملية. "ولكن كثيراً من الشرّاح معتمدين على إشارات وردت في "الطوبيقا"، وفي "الأخلاق إلى نيقوماخوس" إنما يقسمونها إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي: العلوم النظرية والعلوم العملية والعلوم الفنية أو الشعرية"[14].
1-العلوم النظرية: وهي العلوم التي إنما تكون غايتها طلب المعرفة للمعرفة، وهي تتناول الوجود من ثلاث جهات:
أ-من حيث هو وجود بإطلاق، وهو ما لا يحتاج موضوعه في وجوده المنطقي ولا في وجوده الخارجي إلى المادة، وذلك كالمحرك الأول، وهذا هو علم ما بعد الطبيعة أو العلم الأعلى أو العلم الإلهي أو الفلسفة الأولى.
ب-ومن حيث هو مقدار وعدد، وهو ما احتاج موضوعه في وجوده الخارجي-دون المنطقي-إلى المادة، كالمربع والمثلث النظريين مثلاً. وهذا هو العلم الرياضي، ويُقال له أيضاً العلم الأوسط. وقد اشتهر من فروعه منذ القدم ولا سيما منذ العصر الإسكندراني: الحساب والهندسة والفلك والموسيقى.
ج-ومن حيث هو متحرك ومحسوس، وهو ما احتاج موضوعه في حدوده ووجوده إلى المادة، أو ما افتقر موضوعه في كلا وجوديْه: المنطقي والخارجي إلى المادة، كالجسم مثلاً. وهذا هو العلم الطبيعي أو العلم الأدنى أو العلم الأسفل. وهو يشمل علم الطبيعة والآثار العلوية والكون والفساد وعلمي النبات والحيوان وعلم النفس. وقد يلحق به علم الطب أيضاً. اما علم الكيمياء فلم تكن لليونان عناية به بحسب الموروث عن الفلسفة الأرسطوطاليسية، وكانت له نشأة أخرى مختلفة.

2-العلوم العملية: وغايتها تدبير أفعال الإنسان بما هو إنسان. وهي تشمل أولاً ما يكون موضوعه أفعال الإنسان الفرد ثم ما يكون موضوعه أفعال الإنسان في المنزل وأخيراً ما يكون موضوعه أفعال الإنسان في الجماعة. وتبعاً لذلك تنقسم العلوم العملية ثلاثة أقسام:

أ-الأخلاق وموضوعها أفعال الإنسان حيث هو فرد.

ب-تدبير المنزل وموضوعه أفعال الإنسان في الأسرة

ج-السياسة وموضوعها أفعال الإنسان في داخل الجماعة.

3-العلوم الشعرية: وغايتها تدبير أقوال الإنسان، وهي تتناول هذه الأقوال من حيث إيقاعها في النفس، أو من حيث قوة تأثيرها في الخيال، أو من حيث إقناع العقل بها. وتبعاً لذلك تنقسم العلوم الشعرية ثلاثة أقسام:

أ-الشعر، موضوعه أقوال الإنسان المنظومة.

ب-الخطابة، وموضوعه أقوال الإنسان التي تُثير الخيال مرتبة بحيث تحقق اقتناعه.

ج-الجدل هو بداية المنطق عند أرسطو.

وأشرف هذه العلوم جميعاً إنما هي العلوم النظرية لأنها كمال العقل، والعقل أسمى قوى الإنسان. وأشرف العلوم النظرية هو علم "ما بعد الطبيعة" لسمو موضوعه وبعده عن التغيّر. وهذا هو سبب تسميته بالعلم الأعلى. والفلسفة عند أرسطو تتناول هذه العلوم الثلاث جميعاً وتدخلها في إطارها.

ونعلم أن أرسطو لم يدرج المنطق ضمن تصنيفه للعلوم، ولعل السبب يكمن في عدم اعتباره المنطق علم من العلوم، هو أن موضوعه أوسع من أي علم منها، لأنه يدرس التفكير الذي يستخدم فيها جميعاً، بل يدرس أيضاً التفكير الذي لا يدخل نطاق العلم، كالتفكير الشائع عند جمهور الناس والذي يستخدم في البلاغة. كذلك يقدم المنطق القواعد التي تجنب الإنسان الخطأ وترشده إلى الصواب ومن هنا فقد عد المنطق عند أرسطو مقدمة للعلوم تساعد على التفكير السليم.

1.3: بحوثه في وسائل المعرفة: لقد اتسعت فلسفة أرسطو لتشمل نظريات دقيقة وعميقة في المعرفة، فبحث أرسطو في وسائل المعرفة المختلفة وخاصة الإحساس والعقل وقيمة كل وسيلة من هذه الوسائل في اكتشاف حقيقة الوجود والعالم الخارجي.

يبدأ أرسطو بتحديد معنى النفس وقواها قبل أن يتطرق إلى الإجابة عن مصدر المعرفة عند الإنسان وما دور كل من الحس والعقل في تحصيل المعرفة. ولهذا نحن ملزمين بتقديم تعريف أرسطو للنفس.

أولاً-المعرفة الحسية: إن ما هو مؤكد أن فلسفة أرسطو، على خلاف فلسفة أفلاطون، هي فلسفة تجريبية بامتياز، "بحيث أن المعرفة ليس مصدرها الأخرويات Eschatologie، بل كل معرفة إنسانية تبدأ من الحواس"[15].

بعد أن ينتقد أرسطو في كتابه الهام في هذا الموضوع وهو "في النفس" التعاريف السابقة للنفس لأنها، حسب رأيه، لم تستطيع إدراك ماهية النفس. فأرسطو يقدم تعريفان للنفس. أما الأول فهو كالتالي: "النفس هي كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة"[16]، يقصد بهذا التعريف أن النفس أدنى أنواع الكمالات، وهي صورة الجسم الجوهرية وفعله الأول، ومن خلال هذا التعريف ينفي أرسطو إمكانية حلول النفس في جسم صناعي، وقوله "آلي" معناه أن الجسم هو ذو آلات أو هو مؤلف من آلات لها وظائفها المتباينة، وأنه من الكائنات العضوية التي تتركّب من أعضاء وتتفاعل بآلات للغذاء والنمو والحس. وأخيراً قوله "ذي حياة بالقوة" يراد به أن الجسم مهيّأ ومستعد للحياة واستقبال النفس، واستخدام وظائف آلاته لأن ذلك متحقق بالفعل، هذه الأعضاء هي ذات وظائف متباينة ولكنها متكاملة.

أما التعريف الثاني فهو كالآتي: "إن النفس هي ما به نحيا ونحسّ وننتقل في المكان ونعقل"[17]، فالنفس من خلال هذا التعريف الثاني هي التي تجعل صاحبها ذا حياة وحس وحركة ونزوع وفكر.

والنفس عند أرسطو ذات قوى ثلاث هي: النامية والحاسة والناطقة أو العاقلة. فالنفس النامية أو النباتية لها هي الأخرى ثلاث من القوى أو الوظائف وهي أولاً القوة الغاذية ثم المنمّية ثانياً، ثم المولّدة ثالثاً.

أما النفس الحاسة أو الحيوانية وظيفتها الاتصال بالعالم الخارجي ونقل صوره إلى الداخل، فهي تدرك الصور خالية من مادتها. وهذه النفس موجودة في جميع أنواع الحيوانات، ولها خمس حواس ظاهرة، وتتدرج وظائفها بحيث تبدأ بحاسة اللمس، ثم يليه الذوق فالشم فاسمع فالبصر. وكل حاسة منها تنفعل بمحسوس معين لا تنفعل بسواه. ولقد ذهب أرسطو في بحثه في الإحساس إلى القول بنظرية غريبة وطريفة إلى حد ما فهو يقول: "يجب أن نفهم أن الحاسة بوجه عام في كل إحساس هي القابل للصور المحسوسة عارية عن الهيولى، كما يقبل الشمع طابع الخاتم بدون الحديد أو الذهب"[18]، إن العضو الحاس يتلقى صور المحسوس في الأشياء بعملية تجريد مؤداها أن العضو الحاس يجرد الصورة الحسية من مادتها فينطبع بها، أي أن الإحساس هو انتقال الصور الحسية إلى الوجود بالفعل في العضو الحاس كالعين مثلاً تتلون باللون واليد تسخن بالحرارة والأذن تتحد بالصوت.

وهناك أيضاً حواس باطنة وهي الحس المشترك والتخيل.

أ-الحس المشترك: هو ما يكون من طور فوق الحواس الخمسة الظاهرة وهو بمثابة حس داخلي أو باطني للنفس أو هو طور أرقى من الحس الظاهر، وسط بين الحس الخارجي وما يتبعه من درجات سامية في الإحساس والإدراك، ويمكن تلخيص دوره في التمييز بين المحسوسات، والوعي بالإدراك أو إدراك الإدراك، وإدراك المحسوسات المشتركة. والحس المشترك يقوم بالعمليات أو الوظائف التالية:

-الوظيفة الأولى وهي إدراك المحسوسات المشتركة بين أكثر من حاسة مثل إدراك الحركة والسكون والعدد والوحدة والشكل والحجم.

-الوظيفة الثانية وهي إدراك الإدراك، أي الشعور، فبه يدرك الإنسان نفسه رائياً أو سامعاً. إذ أن الحس لا ينعكس على ذاته لارتباطه بعضو مادي، وليس فعله من جنس موضوعه حتى يدركه.

-الوظيفة الثالثة وهي التمييز في كل حس باعتباره جنساً، كالتمييز بين الأبيض والأخضر، والحامض والمالح، وبين موضوعات الحواس المختلفة، كالتمييز بين الأبيض والحلو مثلاً.

ب-التخيل: يقول أرسطو في ضبط معنى التخيل أنه: "ليس إلا قوة أو حالة نحكم بها، ونستطيع أن نكون على صواب أو خطأ وكذلك في الإحساس والظن والعلم والتعقل"[19]، ويفهم من هذا أن التخيل قوة مثل باقي القوى الموجودة في النفس، بمعنى هو ملكة أو جزء من أجزاء النفس عن طريقها يكون الحكم على الأشياء ويحتمل أن يكون هذا الحكم صحيحاً أو خاطئاً مثلما هو الشأن في حالات الأحكام الناتجة عن الإحساس والظن والعلم أو التعقل. ولما كان هناك نوع من الارتباط الوظيفي بين الحس والتخيل، لهذا فإن أرسطو يميز بين التخيل والإحساس لكي يحدد وظيفة كل منهما: -فبينما لا يوجد إحساس بالفعل بدون المحسوس، نجد في حالة التخيل أنه قد توجد الصورة الخيالية في غيبة الإحساس أو المحسوس.

-الإحساس حاضر دائماً في الكائن الحاس، سواء كان هذا الحضور بالقوة أو بالفعل، أما التخيل فليس كذلك، فقد نستطيع أن نتخيل أولا نتخيل.

-وبينما يكون الإحساس بصورة ما مطابقة بين الحس والمحسوس، نجد أن الصورة الخيالية قد تكون تأليفاً من عندنا.

مما سبق يتضح أن قوة التخيل تتفرع عن الإحساس لأنها تستخدم الصور السابق تكوينها بالإحساس، كما أنها تعمل في بعث الصور في الأحلام.

ثانياً-المعرفة العقلية: بعد أن تعرفنا على قوى كل من النفس النامية والحاسة، جاء الدور على التعرف على النفس الناطقة أو النفس الإنسانيةL'âme intellective، وهي النفس التي يختص بها الإنسان دون الحيوان، لأن الإنسان وحده يتميز بقوة العقل أو النطق، وهو القوة القادرة على إدراك ماهيات الأشياء والخواص العامة المشتركة بين المحسوسات التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان. والعقل على حد تعبير أرسطو في كتابه "دعوة للفلسفة" هو "آخر ما ينشأ من ملكات النفس. وإذا سلمنا بهذا يتبين أن مكانة العقل بحسب طبيعتها هي هدفنا كبشر وأن استخدامها هو الغاية الأخيرة التي من أجلها نشأنا"[20].

1-المقارنة بين الحس والعقل: لقد وضح أرسطو في كتاب "في النفس" معنى وطبيعة العقل، وهو "ما به تفكر

النفس وتتعقل المعاني"[21]،وهو ذو مفارقة للجسم المادي وأحواله من خلال المقارنة بينه وبين الحس في أدائهما لفعل المعرفة. إن العقل قوة صرفة كالحس، وطبيعته أنه بالقوة، كاللوح لم يكتب فيه شيء بالفعل، والعقل مفارق، أي ليس له عضو بعينه، وهذه المفارقة تفسر لنا كيف أن انفعاله يختلف عن

انفعال الحس، إذ أن الحس لا يستطيع الإدراك بعد التأثير العنيف، فالسمع لا يدرك الصوت بعد أصوات قوية، ولا يدرك البصر والشم بعد ألوان ساطعة وروائح شديدة، أما "العقل فبالعكس، يستطيع بعد تعقل موضوع شديد التجريد أو المعقولية أن يتعقل موضوعات أدنى معقولية"[22]، والسبب في ذلك أن الحس لاتحاده بعضو فهو يتأثر بفعل الشيء فيه. وعلى ذلك فإن قوة الحس لا توجد مستقلة عن البدن على حين أن العقل مفارق له.

بينما العقل نفارق لكل عضو وغير منفعل انفعالاً طبيعياً كالحس، ويلي هذه القوة المحضة قوة أقرب، فإن العقل بعد أن يخرج إلى الفعل، يحفظ صورة الموضوع الذي تعقله ليستطيع أن يستعيدها، فهو بالإضافة إلى هذه الاستعانة بقوة أقرب إلى الفعل من القوة الأولى السابقة على العلم ويسمى حينئذ عقل بالملكة.

لقد عارض أرسطو كل من سبقوه في نظرتهم المادية للعقل، وأضعف ببراهينه السابقة تلك النظرة الفيزيقية. وقد استند أرسطو في ذلك على مبدأين، "أولهما المبدأ التجريبي القائل بأن المعرفة والفكر يعتمدان بالتحديد على الخبرة الحسية، وهذا يعني أن الفكر يجب أن يكون مشتملاً على تلك الخبرة. وثانيهما أن التفكير خاصية من خصائص النفس، سواء أكان نوعاً من الخيال أو كان بدون خيال، ومن ثم فإن التفكير ممكن الوجود بدون جسم"[23].

2-العقل وعملية المعرفة: يميز أرسطو بين عقل هو هيولي أو هو بالقوة، وعقل هو بالفعل وهو الذي يمثل العلة الفاعلة للمعرفة العقلية، ويؤكد على أسبقية الأول زمانياً، يقول أرسطو: "أما العلم بالقوة فهو متقدم بالزمان في الفرد، ولكنه ليس متقدماً بالزمان على الإطلاق"[24]، وإن لم يكن هذا التقدم بذي قيمة نظراً لأنه لا معرفة تتم للعقل إلا بوجود القوة الفاعلة التي من شأنها تحويل الاستعداد أو الوجود بالقوة إلى وجود بالفعل، وبمعنى آخر أن كل ما قصده أرسطو هنا هو التأكيد على أن القدرة على التفكير لدى الإنسان تسبق التفكير الفعلي، وبالطبع فلا قيمة لهذه القدرة إلا إذا تحولت إلى فعل.

والعقل عند أرسطو نوعان عقل نظري وعقل عملي، فهو من حيث يدرك الماهيات في أنفسها يسمى عقلاً نظرياً، ومن حيث يحكم على الجزئيات بأنها خير فيقبل عليها، أو شر فينفر منها يسمى عقلاً عملياً، والفرق بين العقل والحس من هذه الناحية أن الحس يدرك اللاذّ أو المؤلم في حقيقته المتشخصة، والعقل العمل يدرك الخير والشر من حيث هما كذلك وهما معقولان كالحق والباطل.

والعقل النظري هو درجات وهي:

1- العقل الهيولاني أو القعل المنفعل: إنما هو عقل بالقوة، أي مجرد استعداد للتعقل، إنه يشبه صفحة بيضاء Tabula Rasa خالية من الكتابة، ولكنها قابلة لأن يكتب عليها كل شيء. وهذا العقل الهيولاني قابل لأن تحصل فيه المعقولات بالفعل بتأثير عامل خارجي.

2- والعقل بالملكة والعقل الفعال، وهو عبارة عن العقل الهيولاني وقد حصلت فيه المعقولات فأصبح بالفعل، بمعنى ما بعد إن كان بالقوة، نتيجة لاكتساب المعارف، أو قل هو في مرحلة

وسطى بين القوة والفعل، لأن صاحبه يستطيع استحضار معارفه متى شاء، ولكنها ليست حاضرة دائماً أمامه.

3- وأخيراً العقل الفعال، وهو العلة الفاعلة للإدراك ومبدأ الكمال أو التحقيق للعقل الهيولاني، أي هو الذي يخرج المعقولات من الماديات-وهي موجودة بالقوة-ويطبع بها العقل الهيولاني فيخرجه إلى الفعل، وإلا لظل عقلا هيولانيا بالقوة ولما تحقق له الكمال. فالعقل الفعال هو بالفعل دائما كالشمس، هو نور بالفعل دائما، يحيل المرئيات التي هي بالقوة إلى مرئيات بالفعل. فلو كانت تارة ضياء وتارة ظلاما، أي لو لم تكن نوراً بالفعل دائماً، لما استطاعت ان تكشف الأشياء وتنقلها من مرئيات بالقوة الى مرئيات بالفعل.

أما العقل العملي فهو تلك القوة التي تتجه إلى ما يجب طلبه أو تجنبه من المحسوسات فتساعد على التنبؤ بالأحداث المستقبلية لما هو مؤلم وما هو لذيذ وهكذا الأمر بالنسبة إلى السلوك العملي على وجه العموم، فالعقل العملي "يتعلق باللذيذ والمؤلم، بالحسن والقبيح، ولذلك ففيه جانب شخصي حيث يختلف من شخص إلى آخر الشعور بما هو لذيذ وما هو مؤلم"[25].

4. خاتمة: لقد ذهب أرسطو وهو الفيلسوف العقلي إلى أن الحس هو مصدر المعرفة، وإن العالم الخارجي هو موضوع معرفتنا، وأن الوسيلة التي تربطنا بهذا العالم هي الحواس، فعنده أن من فقد حساً ما فقد علماً ما، لكنه ذكر أن المحسوسات أشبه بمادة أولية. إنها انطباعات متعددة متنوعة لابد لها من قوة توجدها وترتبها وتصنفها وتجمع ما بينها من صفات مشتركة، هذه القوة هي العقل، فالعقل يعمل في الطبيعة والطبيعة تمد العقل بموضوع عمله، فالمعرفة عند أرسطو هي فعل أو عملية يشترك فيها الحس والعقل باتصالهما بالعالم المحسوس، أطراف ثلاثة عند أرسطو لا غنى لواحد منها عن الآخر. فأرسطو على عكس أستاذه أفلاطون يؤكد ما للمعرفة الحسية الواقعية من قيمة وحقيقة ويقين، وإن كان لم يختلف معه في كون يقينها في درجة أقل من يقينية المعرفة العقلية ودقتها.

لقد أبطل أرسطو ادعاء منكري المعرفة الحسية، هؤلاء الذين رأوا أن كل ما يظهر للحواس فليس بحق، ولقد أقام أرسطو إبطاله لدعوى هؤلاء المنكرين على أن الكذب والبطلان ليس خاصاً بالحس والحواس، وإنما يقع للحواس عرضاً. كما أن الإدراك الحسي عند أرسطو لا يعني الاستغناء بالحواس وحدها عن العقل، بل إن الحواس تحتاج إلى ترجمة معلوماتها، وذلك في الحس المشترك، وهو من الحواس الباطنة. وكما أن الحواس عند أرسطو في حاجة إلى العقل، فكذلك العقل في حاجة إلى الحواس في عملية المعرفة.

5. قائمة المراجع:

1. عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 2000، ص 888.
2. إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، 1983، ص 203.
3. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1973، ص479.
4. محمود حمدي زقزوق، تهيد للفلسفة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 1999، ص 111.
5. حمد حسن مهدي بخيت، الفلسفة الإغريقية ومدارسها من طاليس إلى أبروقلوس، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2015، ص 237.
6. محمد عبد الرحمن مرحبا، مع الفلسفة اليونانية، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص 124.

7. أفلاطون، الجمهورية، موفم للنشر، 1990، الكتاب السابع، ص 313.
8. محمد فتحي عبد الله، علاء عبد المتعال، دراسات في الفلسفة اليونانية، دار الحضارة للطباعة والنشر، طنطا، مصر، ص 165.
9. أميل برهييه، تاريخ الفلسفة، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ج1، ص 248.
10. أحمد امين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1935، ص 222.

11. محمد فتحي عبد الله، علاء عبد المتعال، دراسات في الفلسفة اليونانية، المرجع السابق، ص 167.
12. مصطفى النشار، أرسطو طاليس حياتهب وفلسفته، المرجع السابق، 115.
13. أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة: أحمد لطفي السيد، مطبعة دار الكتاب المصرية القاهرة، 1924، ج2، ك7، ب5، ف1، ص 122.
14. محمد عبد الرحمن مرحبا، مع الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص 159.
15. 15 Jean Brun, Aristote et le Lycée, presse universitaires de France, Paris, deuxième édition, 1965, p88.
16. أرسطو، في النفس، نقله إلى العربية أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1949، ك2، ص 42.
17. أرسطو، في النفس، المصدر نفسه، ص 48.
18. أرسطو، في النفس، المصدر نفسه، ص 87.
19. أرسطو، في النفس، المصدر نفسه، ص 104.
20. أرسطو، دعوة للفلسفة، قدّمه للعربية مع تعليقات وشروح عبد الغفار مكاوي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 38.
21. أرسطو، في النفس، المصدر نفسه، ص 104.
22. أرسطو، في النفس، المصدر نفسه، ص 109.
23. مصطفى النشار، أرسطو طاليس حياته وفلسفته، ص 100.
24. أرسطو، في النفس، المصدر نفسه، ص 112.
25. أرسطو، في النفس، المصدر نفسه، ص 119.